سُورَةُ الأَحْقَافِ

مكية وهي خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ أي بتقدير أجل مسمى، ينتهي إليه أمر الكل، وهو يوم القيامة، وهذا يدل أن إله العالم، ما خلق هذا العالم ليبقى مخلداً، بل إنما خلقه ليكون داراً للعمل، ثم يفنيه ثم يعيده، فيقع الجزاء في الدار الآخرة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ أي والحال أنهم معرضون عمَّا خوِّفوا به، لا يستعدون لحلوله، ولا يتفكَّرون ولا يتدبَّرون!.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم ﴾ توبيخاً لهم، أي أخبروني ﴿ مَّا تَدْعُونَ ﴾ أي ما تعبدون

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَرُونِي﴾ تأكيد لـ: ﴿أرأيتم﴾ أي أرشدوني وأعلموني ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؟ أي شركة مع الله ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي في خلقها وملكها وتدبيرها؟ فإن البشر بمعزل عن الخلق والتدبير، وإن كانوا من الأحياء العقلاء، فما ظنكم بالجماد؟ ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ﴾ تبكيت لهم، أي ائتوني بكتاب سماوي كائن ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي القرآن الناطق بالتوحيد ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من علم من علوم الأولين، شاهدة باستحقاقهم العبادة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، فإنها لا تكاد تصح، ما لم يقم عليها برهان.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ﴾ إنكارٌ ونفيٌ لأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال، أي هم أضل من كل ضالّ، حيث تركوا خالقهم السميع، القادر، الخبير، المجيب، إلى عبادة مصنوعهم العاجز، العاري عن السمع، والقدرة، والاستجابة، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غاية لنفي الاستجابة، أي لا يستجيبون لهم أبداً ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ أي لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بهم وبعبدتهم ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لأنهم إما جمادات، وإما عباد مشتغلون بأحوالهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند القيامة ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي مكذبين، بلسان الحال، أو المقال، على ما يروى أنه تعالى يحيي الأصنام، فتتبرأ عن عبادتهم أو يراد بهم كل من يعبد من الملائكة، والجن، والإنس وغيرهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي مبينات للحق، واضحات ظاهرات أنها كلام العزيز الحميد ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ ﴾ أي قال الكفرة المجرمون عن القرآن المبين ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ في أول ما جاءهم من غير تدبر ولا تفكير ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي هذا سحر واضح، لا شبهة فيه، يسحركم به محمد.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾؟ انتقال من شناعتهم السابقة، إلى حكاية ما هو أشنع منها، أي بل أيقولون افترى محمد القرآن؟ ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تقدرون أن تردُّوا عني عذاب الله، إذ لا ريب في أنه تعالى يعاجلني بالعقوبة، فكيف أجترىء عليه، فأعرِّض نفسي للعقوبة؟ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي هو جلَّ وعلا أعلم بما تخوضون وتندفعون فيه، من القدح في وحي الله، والطعن في آياته ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالجحود والعناد ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب وأناب، وفيه وعد بالغفران والرحمة لهم إن رجعوا عن الكفر والضلال.

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ البِدْعُ: بمعنى البديع كالخِلِّ بمعنى الخليل، وهو ما لا مثل له، كانوا يقترحون عليه ﷺ آيات عجيبة،

ويسألونه عن المغيبات، عناداً ومكابرة، فأُمر ﷺ أن يقول لهم: ما كنت بديعاً من الرسل، قادراً على ما يقدر عليه الله، حتى آتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ يصيبنا فيما يستقبل من الزمان؟ وعن الحسن أن المعنى: لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، من الحوادث والأحداث الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي الناطق، بتفاصيل ما يفعل بالجانبين ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يُوحِي إليَّ ربي، وهو جواب عن اقتراحهم إخبارهم عن المغيَّبات ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذركم عقاب الله حسبما أوحي إلي ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن الإنذار، بالمعجزات الباهرة، عن خارجة ابن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعلُ بي»[1].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي ما يوحى إليَّ من القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال بإضمار «قد» وُسِّطت بين أجزاء الشرط، مسارعةً إلى التسجيل عليهم بالكفر ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي شهد رجل من علماء بني إسرائيل، وهو «عبد الله بن سلام» الواقف على أسرار الوحي، بما أُوتي من التوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة، المطابقة لما في القرآن، من

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ٣/ ١١٤ ومناسبته أن «عثمان بن مظعون» لمَّا توفي وكُفِّن في أثوابه، قالت أم العلاء: رحمةُ الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها النبي ﷺ: وما يدريكِ أن الله أكرمه؟ ثم قال ﷺ: والله ما أدري.. الحديث.

التوحيد، والوعد والوعيد، وغير ذلك، روي أنه لما آمن عبد الله بن سلام قال: يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهْتٌ، وإنْ علموا بإسلامي بهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: أيُّ رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا، وابن خيرنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرنا»[1] ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ جواب الشرط محذوف، والمعنى: أخبروني إن كان من عند الله، وشهد بذلك أعلم بني إسرائيل، فآمن به، واستكبرتم عن الإيمان به، من أضلُّ وأظلم منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[2] ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وصفهم بالظلم، للإشعار بعلة الحكم، فعدم هدايتهم لظلمهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة، في حق القرآن والمؤمنين به ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي قالوا لأجل إيمان المؤمنين ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي ما جاء به محمد من القرآن والدين ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ فإن معالي الأمور لا ينالها أيدي الفقراء والرعاة!! قالوا: وعامة من يتبع محمداً فقراء، مثل عمار، وصهيب، وابن مسعود، وغيرهم رضي الله عنهم، قالوه زعماً منهم أن الرياسة الدينية مما تُنال بأسباب دنيوية كما قالوا: ﴿لولا نُزِّل هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُلَيْنِ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾؟ وغاب عنهم أنها منوطة

(١) الحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ٧/ ١٩٧.
(٢) سورة فصلت، آية: ٥٢.

بكمالات نفسانية، وملكات روحانية، لا بأمور دنيئة دنيوية ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي وإذا لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ غير مكتفين بنفي خيريته ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كذبٌ قديم، كما قالوا أساطير الأولين.

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ وهو ردٌّ لقولهم ﴿هذا إفك قديم﴾ فإن كونه مصدقاً لكتاب موسى، مقرر لحقيته قطعاً كأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن، أنكم لا تنازعون في أن الله أنزل التوراة على موسى، والتوراة مشتملة على البشارة بمقدم رسول الله ﷺ، فإذا سلَّمتم كون التوراة إماماً فاقبلوا حكمه في النبي حقاً ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من كتاب موسى، أي إماماً يقتدى به في دين الله، كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي يقولون في حقه ما يقولون ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزله الله بلسان عربي ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي إنذاراً وتخويفاً للظالمين ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين، وبشارة المطيعين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي استقاموا على التوحيد والإيمان، وطاعة الرحمٰن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة خلّدوا في الجنة.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بأن يحسن ﴿بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أي يحسن إليهما إحساناً كما أحسنا إليه في صغره ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ دلت الآية على أن حق الأم الفظامُ، لأنه تعالى خصَّ الأم بالكره ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ وهو الفطامُ والمراد به الرضاع ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ تمضي عليها بمعاناة المشاق لأجله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي اكتهل واستحكم قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يبعث نبيٌّ قبل أربعين لأنه سنُّ اكتمال العقل ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أي نعمة الدين وغيرها ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ التنكير للتفخيم والتكثير ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم، قال ابن عباس: «أجاب الله دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأعتق تسعة من المؤمنين، ولم يُرِدْ شيئاً من الخير، إلا أعانه الله تعالى عليه، وأجاب الله دعاءه في ذريته، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً، فاجتمع له إسلام أبويه، وأولاده، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة» ولذلك قيل: إنها نزلت فيه ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بما ذُكر ﴿ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ من الطاعات فإن المباح حسن ولا يثاب عليه ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي خطيئاتهم ﴿ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ أي كائنين في عدادهم ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ﴾ مصدر مؤكد، لأن قوله: «نتقبل» و«نتجاوز» وعدٌ من الله لهم بالتقبل والتجاوز، أي وعدهم الله بذلك وعداً صادقاً ﴿ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ على ألسنة الرسل في الدنيا.

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ﴾ لما وصف الله تعالى البار بوالديه وصف العاق في هذه الآية، أي قال لوالديه عند دعوتهما إلى الإيمان ﴿ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ أي قبحاً لكما على هذه الدعوة، والآية في الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث، وما روي من أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه، يردُّه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾ فإنه رضي الله عنه من أفاضل المسلمين ﴿ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أن أُبعث من القبر بعد الموت ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ أي وقد مضت قرون من الناس قبلي، ولم يبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ يسألان أن يغيثه ويوفقه للإيمان ﴿ وَيْلَكَ ﴾ أي قائلين له ﴿ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث، أضافاه إليه تعالى، تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تكذيباً لهما ﴿ مَا هَٰذَآ ﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك﴾ كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ قد ضيعوا فطرتهم الأصلية، باتباع الشيطان فخسروا حياتهم وسعادتهم الأخرويَّة.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ﴾ مراتب من أجزية ما عملوا، من الخير والشر، والدرجة غالبة في مراتب المثوبة، وإيرادها ههنا بطريق التغليب[1] ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) الدرجات في اللغة هي الطبقات من المراتب، وغلب استعمال الدرجات في الخير كقوله: ﴿هم درجات عند الله﴾ وقوله: ﴿فأولئك لهم الدرجات العُلى﴾ وفي الآية هنا إضمار تقديره: ولكل فريق منهم درجات أودركات، حذف الثاني اختصاراً لدلالة المذكور عليه.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي يعذبون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف أي قُتِلوا ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي بسبب استكباركم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبفسقكم المستمرَّين، ولما وبَّخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات، آثر النبي ﷺ وأصحابُه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا، رجاء ثواب الآخرة، روى الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «دخلتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئٌ على رمال حصير، قد أثَّر في جنبه، فقلت: أستأنسُ يا رسول الله؟ قال: نعم، فجلستُ فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردُّ البصر، إلا أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، ولا يعبدون الله!! فاستوى جالساً ثم قال: أفي شك أنت يا ابنَ الخطاب، أولئك قوم عُجِّلتْ لهم طيباتُهم في الحياة الدنيا، فقلت: استغفر لي يا رسول الله..»[1] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله ﷺ»[2] وروى البخاري عن عائشة أيضاً قالت: «كان يأتي علينا الشهر والشهران، وما يُوقد فيه نار، إنما هو الأسودان: التمرُ، والماءُ»[3] إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم، لأنها وردت في حق الكافر، لأنه يتمتع ولم يؤد شكره، بخلاف المؤمن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟ نعم إن الاحتراز أولى، لأن النفس إذا اعتادت التنعم، صعب عليها الاحتراز، فربما حمله ذلك على فعل ما لا ينبغي.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/ ٥٠٣ في التفسير ومسلم في الطلاق رقم ١٤٧٩.
(٢) الحديث أخرجه البخاري الأطعمة ٩/ ٤٧٨ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٧٠.
(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٨٢.

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ ﴾ لكفار مكة ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ أي هوداً عليه السلام ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ ﴾ أي وقت إنذاره إياهم ﴿ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ جمع حِقْف وهو التل العظيم من الرمل، قال قتادة: كانوا حياً باليمن أهل رمل، بأرضٍ يقال لها: الشحر، مشرفين على البحر. ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أي الرسل ﴿ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ أي من قبلِ هود، ومن بعده، والجملة اعتراضٌ وُسِّطَ بين «أَنْذَر» وبين قوله: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ والمعنى: إن هوداً قد أنذرهم بذلك، وأعلمهم أن الرسل الذين بُعثوا قبله، والذين سيبعثون بعده، كلهم منذرون نحو إنذاره.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي فائتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً في كلامك.

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ هود عليه السلام ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ ﴾ أي العلم بوقت نزول العذاب ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وحده، لا علم لي بوقت نزوله ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ إليكم، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ حيث تصرُّون على كفركم، وتطلبون العذاب من جهالتكم وسَفَهكم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ أي ولما شاهدوا سحاباً يعرض في الأفق ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي متوجهاً نحو أوديتهم، استبشروا ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ ﴾ قال المفسرون: كان قد حُبس عنهم المطر، فلما رأوه مستقبل أوديتهم، استبشروا، وقالوا: هذا سحاب مبارك ممطرنا، أي يأتينا بالمطر ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هود عليه السلام رداً عليهم: ليس الأمر كذلك، بل هو ﴿ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ ﴾ من العذاب ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ريح عاصفة مدمِّرة، فيها عذاب فظيع مؤلم.

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي تهلك كلَّ شيءٍ من أموالهم، ونفوسهم، وحيواناتهم، ونباتاتهم، بأمر الله ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، لأن الريح العاتية لم تبق منهم إلا الآثار ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي نعاقب من كان كافراً مجرماً.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ ﴾ أي ملّكناهم وأقدرناهم ﴿ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ أي في الذي لم نمكنكم يا أهل مكة فيه، من السَّعَة، والبسطة، وطول

الأعمار، وسائر مبادىء التصرفات، كقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾[1] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي آلات الإحساس والفهم، ليستعملوها فيما خُلقت له، ويستدلوا بها على شؤون منعمها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة في صحائف العالم ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي حيث كانوا يكفرون بآيات الله وينكرونها، وهو كالتعليل لهلاكهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي نزل بهم العذاب، وأحاط بهم من كل جانب، وهو العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يا أهل مكة كبلاد ثمود باليمن، وقرى قوم لوط بالشام أهلكناها مع أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ كررناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمَّا هم فيه من الكفر والمعاصي، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ﴾ أي فهلاَّ نصرتهم آلهتهم الذين عبدوها من دون الله، واتخذوهم قربة بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ؟ حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ﴾

(١) سورة الأنعام، آية: ٦.

و﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفيه تهكم بهم وبآلهتهم المزعومة ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾ أي غابوا عنهم، وفيه تهكمٌ آخر بهم، كأن عدم نصرهم لغيبتهم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي ضياع آلهتهم وامتناع نصرهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي أثر إفكهم وكذبهم على الله، وهو اتخاذهم إياها آلهة ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عطف على إفكهم وأثر افترائهم بقولهم إنها آلهة، وإنها تشفع لهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي وجهناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال الراغب: والجنُّ: مخلوقات مستترة عن الحواس، وهم من الروحانيين، وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيارهُم الملائكةُ، وأشرارهم الشياطينُ، وأوساطٌ، فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ وقد دلَّ الكتاب وأخبار الأنبياء على وجود الجن، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة، وغاية ما فيه وجود أشخاص بيننا لا نراهم، وليس ذلك مما يمنع وجودهم، فإن من المقطوع به أن الروح، والعقل في البدن، ولا نراهما [1] ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي لاستماع القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿أَنصِتُواْ﴾ أي اسكتوا لنسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي أتم ﷺ وفرغ عن تلاوة القرآن ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي

(١) الجنُّ مخلوقات غيبية كالملائكة، يختلفون عنهم في أصل الخلقة، فأصلهم من نار، والملائكة من نور، وهم مكلفون كالإنس بتوحيد الله وطاعته وعبادته، وجميع الجن داخلون في دائرة المسؤولية، وقد بلَّغهم ﷺ دعوة الإسلام، فآمن البعض وكفر البعض، فالإيمان بهم واجب، ولا ينكر وجودهم إلا غبيٌّ جاهل، لأن هناك أشياء كثيرة موجودة ولا نراها كالميكروبات والجراثيم، والروح والعقل كما أشار إليه المصنف رحمه الله.

رجعوا إلى قومهم مصممين إنذارهم عذاب الله، وداعين لهم إلى الإيمان، وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، فعند ذلك:

﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ قالوه لأنهم كانوا على اليهودية ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أرادوا به الكتب السماوية ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إليه، وهو الشرائع والأعمال.

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ وهو الرسول ﷺ ﴿ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب، والإيمان بالرسول الذي نزل عليه القرآن ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما كان في خالص حق الله تعالى، فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي ينقذكم من عذاب شديد مؤلم، معدٍّ للكفرة، واختلف العلماء في حكم مؤمن الجن، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلاَّ نجاتهم من النار، والأكثر على أنهم في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً، وتمام الكلام في سورة الجن.

﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا ترهيب بعد الترغيب، أي ومن لم يؤمن بالله، ويستجب لدعوة رسوله ﷺ فليس بمعجزٍ له تعالى بالهرب، وإن هرب كل مهرب ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ بيان لاستحالة

نجاته بواسطة الغير، أي وليس له من ينقذه ويخلّصه من عذاب الله تعالى، من أنصار ولا أعوان، ولا من عبدهم من دون الله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي الموصوفون بعدم الإجابة ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، بحيث لا يخفى على أحد، حيث أعرضوا عن الاستجابة لدعوة الله.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ابتداءً من غير مثال ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي لم يتعب، ولم يعجز ولم يضعف بذلك أصلاً ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ خبر لأنَّ، كأنه قيل: أوليس الله بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ﴾ ولذا أجيب بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام، أي لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم.

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي ذكّرهم يوم يعرضون على نار جهنم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ أي يقال لهم: أليس هذا العذاب الذي ترونه حقاً؟ وفيه سخرية بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده حيث كانوا يقولون ﴿وما نحن بمعذبين﴾ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ أكدوا جوابهم بالقسم، كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيتها كما في الدنيا، وأنَّى لهم ذلك؟ ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم وجحودكم للحساب والجزاء.

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر، فاصبر على ما يصيبك يا محمد من جهتهم ﴿ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ ﴾ أي أولو الثبات والحزم ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فإنك من جملتهم، بل من أكابرهم، والمراد بأولو العزم: أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وصبروا على تحمل مشاقِّها، ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، وقال ابن زيد: كلهم ذوو عزم، وحزم، واختاره الرازي على أنَّ «مِنْ» للتبيين ﴿ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ أي لكفار مكة بالعذاب، فإنه على شرف النزول بهم ﴿ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ ﴾ في الدنيا ﴿ إِلَّا سَاعَةً ﴾ يسيرة ﴿ مِّن نَّهَارِۭ ﴾ استقصروها لما يشاهدونه من شدة العذاب ﴿ بَلَٰغٞ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الذي وُعِظتم به تبليغٌ من الرسل ﴿ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾؟ أي الخارجون عن الطاعة وعن الإيمان، وقال الزجاج: لا يهلك مع رحمة الله وفضله، إلا القوم الفاسقون.

والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على نبيه وعلى آله وصحبه، وعلى العلماء العاملين بسنته، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»

* * *

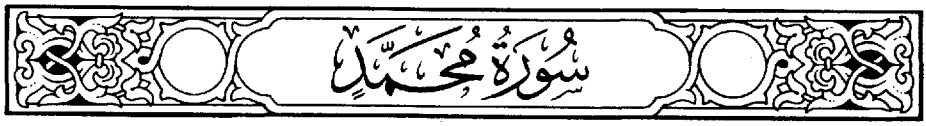

مدنية وآيها ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي امتنعوا عن الدخول في الإسلام، وصدُّوا غيرهم عنه، وهو عام في كل من كفر وصدَّ الناس عن دين الله ﴿ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي أبطلها وجعلها ضائعة لا أجر لها ولا ثواب، بمعنى أنه تعالى حكم ببطلانها وضياعها، فإن ما كانوا يعملونه من أعمال البرّ، كصلة الرحم، وقرى الأضياف وغيرها، ليس لها أثر في الآخرة، لعدم مقارنتها للإيمان، فإن الإيمان شرطٌ لقبول العمل، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[1] وإذا لم يقبل العمل، لا يكون له وجود بالكلية.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ .

(١) سورة النحل، آية: ٩٧.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ خُصَّ بالذكر مع اندراجه فيما قبله، تنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه أصل في الكل، ولذا أكد بقوله ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بطريق حصر الحقية فيه ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح، ومحاها وغفرها لهم ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي حالهم في الدين والدنيا، بالتأييد والتوفيق، وقيل: قلوبهم، لأن القلوب إذا صلحت صلح الجسد كله.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار، بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي يبيّن للناس ﴿ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ أي أحوال الفريقين، وأوصافهم الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتباع الأولين الباطل وخسرانهم، واتباع الآخرين الحق وفوزهم.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فإذا لقيتم في المحاربة الكفار أعداءكم وقوله: ﴿لَقِيتُمُ﴾ يدل على أن القصد من جانب المؤمنين، بخلاف إذا لقيكم، ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً، ففيه اختصار، وتأكيدٌ بليغ، وتهويلٌ لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه، وذلك بضرب الرأس، فإذا أُبين عن بدنه، كان أسرع للموت

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي أكثرتم قتلهم، وأثقلتموهم بالقتل والجراح ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي فأسروهم واحفظوهم، والوَثَاق بالفتح: القيدُ، والحبلُ، وهو اسم لما يوثق به أي يربط به ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي فإما تمنون مناً بعد ذلك أو تفدون فداءً، والمعنى: التخيير بين الاسترقاق، والمنِّ، والفداء.

وقال مجاهد: ليس اليوم مَنٌّ ولا فداء، إنما هو الإسلام، أو ضرب العنق ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أوزار الحرب: آلاتُها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها، من السلاح، والكُراع، وأسند وضعِها إليها وهو لأهلها إسناداً مجازياً، والمعنى إنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون مع المشركين حرب، بأن لا تبقى لهم شوكة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي افعلوا ذلك ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ أي ليختبر إيمانكم وثباتكم، ولذلك أمركم بالقتال، وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم، فتستوجبوا ثواب الله العظيم ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي استشهدوا ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي فلن يضيِّعها، بل يوفيهم ثواب أعمالهم.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥﴾.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب والجنة ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي ويرضى أعمالهم ويقبلها.

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾.

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ بذكر أوصافها، بحيث يعلم كل أحد منزله، كأنه ساكنه منذ خُلق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي دينه ورسوله ﴿ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ الله تعالى على أعدائكم، ﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ في مواطن الحرب، فالمؤمن ينصر الله بخروجه للقتال وإقدامه، والله ينصره بتقوية قلبه، وتثبيت أقدامه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾ التعس: الهلاكُ والعَثارُ والسقوط، تعِس: أكبَّ على وجهه، وهذا زيادة في تقوية قلوبهم، كأنه قال تعالى: ولكم الثبات، ولهم الزوال به ﴿ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الشقاء وضلال الأعمال ﴿ بِأَنَّهُمۡ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي القرآن لما فيه من التوحيد، والأحكام، المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي أذهبها وأضاعها.

﴿ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾؟ أي أقعدوا في أماكنهم، فلم يسيروا فيها، فينظروا كيف كان من قبلهم من الأمم المكذبة، فإن آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ أي أهلكهم الله واستأصلهم وخرّب ديارهم ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ أي ولهؤلاء الكافرين أمثال عقوباتهم، وعاقبتهم الوخيمة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي ذلك المذكور من العقوبة بسبب أنه تعالى ناصر المؤمنين بسبب إيمانهم، وأن الكافرين لا ناصر لهم يدفع ما حلَّ بهم من العذاب، ولا يخالف هذا قوله تعالى: ﴿ثم رُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ﴾ فإن المولى هناك بمعنى المالك، وههنا بمعنى الناصر، فإنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين من جهة الملك والتصرف، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ بيان لحكم ولايته لهم، وثمراتها الأخروية ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ أي ينتفعون في الدنيا بمتاعها الفاني، ولذائذها وشهواتها، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم، ويأكلون ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي كالبهائم، غافلين عن عواقبهم ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي ونار جهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي وكم من أهل قرية، هم أشد قوة من أهل مكة، الذين كانوا سبباً لخروجك من بينهم، وصفُ القرية الأولى بشدة القوة؛ للإيذان بأولوية الثانية بالإهلاك، ووصفُ الثانية بإخراجه ﷺ؛ تلميح لعظم جناياتهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي فلم ينصرهم أحد، ولم يستطع دفع العذاب عنهم، وهذه تسلية للرسول ﷺ، أي كذلك نفعل بالمجرمين من قومك.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقرير لتباين حال الفريقين المذكورين، أي هل من هو على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر الدين، وبرهان نيِّر، وهو القرآن الكريم ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغة، وانهمكوا في الضلالات؟.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بيان محاسن الجنة الموعودة للمؤمنين، أي صفة الجنة التي وعدها الله لعباده المؤمنين المتقين، وأحوالها العجيبة الشأن ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي غير متغير الطعم والرائحة، يقال: أسِنَ الماءُ إذا فسد وتغيَّر ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي أنهار من حليب في غاية الجودة والمساغ، لم يحمض بطول المقام، لأن الحليب سريع الفساد ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي لذيذة ليس فيها كراهة طعم، ولا غائلة سُكْرٍ ولا خُمار، وإنما هي تلذذٌ محض، وإنما قال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فربَّ طعامٍ يتلذذ به شخص، ويعافه الآخر ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لا يخالطه الشمع، وفضلات النحل ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذكر ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من كل صنف من الثمرات، ولما كان في الجنة الأكل للَّذة لا للحاجة، ذكر الثمار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولهم مغفرة عظيمة، فإن قيل: لا يدخل أحد الجنة إلا بعد المغفرة فكيف قال ولهم مغفرة؟ الجواب أن المراد بالمغفرة رفع التكليف عنهم فكل ما تشتهيه نفسه حلال من الجنة ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمَّن

هو خالد في هذه الجنة، كمن هو خالد في النار؟ كما نطق به قوله تعالى: ﴿والنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي ماءً حاراً قد بلغت حرارته النهاية، مكان تلك الأشربة اللذيذة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي فقطَّع أحشاءهم من شدة حرارته.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون في نفوسهم الكفر والعصيان، كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ، فيسمعون كلامه، تهاوناً به وتغافلاً عنه، ولا يراعونه حق رعايته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي ما الذي قاله محمد الساعة؟ على طريق الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لعدم توجههم نحو الخير أصلاً ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممَّا لا خير فيه، والمعنى إنهم لما تركوا اتباع الحق، أمات الله قلوبهم، فلم تفهم، فعند ذلك اتبعوا أهواءهم الباطلة.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ إلى طريق الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ أي المسموع لأنهم فهموه وكانوا مهتدين، فزادهم الله هدى، حتى ارتقوا من درجة المهتدين، إلى درجة الهادين ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي أعانهم على تقواهم وألهمهم رشدهم.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ أي القيامة ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي تباغتهم بغتة ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي علاماتها، جمع شرط وهي العلامة، كمبعثه ﷺ، وانشقاق القمر، وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ من أشراط الساعة، أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهلُ، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقلَّ الرجالُ، ويكثر النساء»(١) ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ بيان استحالة نفع التذكر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ أي كيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة، وحينئذ لا ينفعهم ندم ولا توبة!!.

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد، ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، والعمل بموجبه ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ بما يصدر عنه من ترك الأولى، عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولإرشاده إلى التواضع، وهضم النفس ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي لذنوبهم بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعي الغفران ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا، فإنها مراحل لا بد من قطعها لا محالة ﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في العقبى فإنها مواطن إقامتكم، وقيل: المعنى يعلم جميع أحوالكم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٣/ ١٤.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ حرصاً منهم على الجهاد ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ ﴾ أي هلاَّ نُزِّلت سورة فيها ذكر الجهاد، وفريضة الجهاد، لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال، وعن قتادة: كلُّ سورة فيها ذكر القتال، فهي محكمة لم تنسخ ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ أي تشخص أبصارهم جبناً وهَلَعاً، كدأب من أصابته غشية الموت، ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أي فويل لهم مشتق من الويل، وقيل معناه: الموت أولى لهم، والأول أصح، لأن الويل معناه الهلاك، أي هلاك لهم ودمار.

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: طاعة لك يا محمد، وأمرٌ معروف خير لهم ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي فإذا جدّ الجِدُّ، وفُرض القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي فلو أخلصوا في إيمانهم، واتباعهم الرسول ﴿ لَكَانَ ﴾ الصدق ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ من التقاعس والعصيان.

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام، أن

ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام.

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟!.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات الكونية.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؟ أي ألا يلاحظون ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؟ فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلاً، و «أم» بمعنى «بل» وهو انتقال من توبيخهم على التدبر في الآيات، إلى التوبيخ على ظلمة القلوب وقسوتها، والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة متحجرة، كأنها مكبَّلة بأقفال حديدية، فلا يصل إليها نور، ولا ينفذ إليها قرآن، وهذا كما تقول عن إنسان مؤذٍ: هذا ليس بإنسان هذا وحشٌ، وهذا ليس بقلب بل حجر!!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ﴾ بالدلائل الظاهرة، وهم المنافقون، أي من بعد أن وضح طريق الهدى بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الواضحة

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي الشيطان سهَّل لهم ركوب العظائم، من الفواحش والمنكرات ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الأماني والآمال.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟﴾ يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي اليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ، مع علمهم بأنه من عند الله تعالى، حسداً وطمعاً في نزوله عليهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ عبارة عما حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين، نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾[1] الآية، وهم بنو قريظة والنضير، وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سراً، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي إخفاءهم، وما دبَّروه من الكيد والدسِّ، والتآمر على الإسلام والمسلمين، قالوا ذلك لليهود سرّاً، فكشفه الله وفَضَحهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ؟ أي فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة، وجاءتهم ومعهم مقامع من حديد، يضربون بها وجوههم وظهورهم؟.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) سورة الحشر، آية: ١١.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب الهائل ﴿ بِأَنَّهُمُ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ أي ما يرضاه من الإيمان والطاعة ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي أبطلها وأزهقها.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلت أحوالهم، وصفوا بوصفهم السابق، لكونه مداراً لما نُعي عليهم، بقوله تعالى ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾؟ جمع ضِغن، وهو الحقد الشديد، مثل حِمْل وأحمال، والمعنى: أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين، أنه تعالى لن يخرج أحقادهم، ولن يُبرزها للرسول ﷺ وللمؤمنين، فتبقى أمورهم مستورة؟ ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ ﴾ لعرَّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ ﴾ بعلاماتهم التي نَسِمُهم بها، وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم» ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ أي من فحوى كلامهم وأسلوبهم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعدٌ ووعيد.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ علماً فعلياً يتعلق به الجزاء ﴿ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي الثابتين الذين لا

يولُّون الأدبار ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم، فيظهر حسنها وقبيحها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن الدخول في الإسلام ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي حاربوا الرسول وخرجوا عن طاعته، ومنهم الذين أطعموا المشركين يوم بدر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ بما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل عليه من الآيات ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم وصدِّهم عن سبيل الله ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي مكايدهم التي نصبوها في إبطال دينه، ومشاقة رسوله، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بما أبطل هؤلاء أعمالهم بالكفر والنفاق، وليس فيه إحباط الطاعات بالكبائر، أي داوموا على ما أنتم عليه ولا ترتدوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ حكمٌ يعمُّ كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أصحاب القليب أي قليب بدر لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ أي لا تضعفوا يا معشر المؤمنين ﴿ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خَوَرَاً ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فإن كونهم مؤمنين، وكونه تعالى ناصرهم، من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل، وهذا كقوله تعالى: ﴿لأَغْلِبَنَّ أنَا ورسُلِي﴾ وقوله: ﴿وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أي لن يضيعها، من الوتر الذي هو الفرد، أي لن ينقص شيئاً من ثواب أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلاَّ فانية زائلة، لا قرار لها ولا ثبات، تشبه لعب الأولاد، فلا ينبغي أن تكون مانعاً للمؤمن عن الجهاد، خوفاً من فواتها، فما عند الله خير للأبرار. ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي ثواب إيمانكم وثواب تقواكم كاملاً ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم بحيث يخلُّ أداؤها بمعاشكم، وإنما اقتصر على نَزْرٍ يسير منها، تؤدونها إلى فقرائكم.

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا ﴾ أموالكم ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ أي يجهدكم بطلب الكلِّ فإن الإحفاء والإلحاف هو المبالغة في الإلحاح ﴿ تَبْخَلُوا۟ ﴾ لو طلبها لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير، فكيف لا تبخلون بالكثير؟ ﴿ وَيُخْرِجْ

أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي أحقادكم، أي يخرج ما في قلوبكم من البخل، وكراهة الإنفاق، لأن الإنسان جُبل على حبِّ المال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائر نفسه، فمن رحمته تعالى أنه لم يكلفكم بما لا تطيقون.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أنتم هؤلاء المخاطبون ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والإنفاق في سبيل الله، يعمُّ نفقة الغزو، والزكاة وغيرهما ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي ناس يبخلون ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فإن كلاً من نفع الإنفاق، وضرر البخل، عائد إليه، كمن بخل بأجرة الطبيب، وثمن الدواء، وهو مريض ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي مستغن عنكم وعن إنفاقكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي وأنتم محتاجون إليه، فإن امتثلتم فلكم، وإن توليتم فعليكم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ أي وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلف مكانكم قوماً آخرين ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ في التولي عن الإيمان، والبخل في الإنفاق، بل يكونوا أسخياء كرماء.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد»

* * *

مدنية وآياتها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ المراد به فتح مكة شرفها الله، والتعبير عنه بصيغة الماضي للإيذان بتحققه لا محالة، تأكيداً للتبشير، وقيل: هو صلح الحديبية، فإنه وإن لم يكن فيه حرب، لكن أصاب رسول الله ﷺ ما لم يصب في غزوة[1]، ووقع في الحديبية معجزة عظيمة، هي أنه كان بها بئرٌ، نُزِح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فمضمض رسول الله ﷺ، ثم مجَّ فيها، فدرَّتْ بالماء، حتى شرب من كان فيها من الجيش ﴿ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ أي فتحاً بيِّناً، ظاهراً، فارقاً بين الحق والباطل.

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» لما ترتَّب على هذا الصلح من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام، إلى غير ما هنالك من أمور عظيمة، وإلى هذا القول ذهب الحافظ ابن كثير رحمه الله.

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ غاية الفتح من حيث إنه مترتب على سعيه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ أي جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وتسميتها ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاء الدين، وضم النصر إلى النبوة، وغيرهما مما أفاض الله عليه من النعم الدينية والدنيوية ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة، وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكنْ حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، ما جعل كثيرين من المشركين يدخلون في دين الله.

﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أي نصراً فيه عزَّةٌ ومَنَعة، يجمع لك فيه بين عز الدنيا والآخرة.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ بيان لما أفاض عليهم من مبادىء الفتح، من الثبات والطمأنينة، أي أنزلها ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بسبب الصلح والأمن، إظهار نعمة الله تعالى عليهم، بتيسير الأمن بعد الخوف ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي يقيناً منضماً إلى يقينهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علام الغيوب ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يدبّر أمرها حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ مبالغاً في العلم

بجميع الأمور ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره، فكان قادراً على إهلاك عدوه، ولم يفعل، بل أهلكهم بأيدي المؤمنين، ليكون لهم الثواب العظيم بقتال المشركين، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي دبَّر ما دبر، من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك، ويشكروها فيدخلهم الجنة ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ﴾ أي يغطِّيها ولا يظهرها ويمحوها عنهم فلا يؤاخذهم بها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره، لأنه منتهى ما تمتد إليه أعناق الرجال.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وفي تقديم المنافقين، دلالة على أنهم أحق من الكفار بالعذاب، لأنهم كانوا أشد على المؤمنين، بحيث لا يمكن التحرز عنهم ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾ أي ظن الأمر السوء، وهو أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم فلا يرجعون إلى ديارهم ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، فهو نازلٌ بهم، ودائر عليهم ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي سخط عليهم أشد السخط، لكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً عظيمة مستعرة هي نار جهنم، وبئست جهنم مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال.

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ كرر الآية تأكيداً، وفائدتها التنبيه على أن لله تعالى جنود الرحمة، وجنود العذاب، وأن المراد ههنا جنود العذاب، كما ينبىء عنها التعرض لوصف العزة، فذكرهم أولاً لبيان جنود الرحمة لأن الحديث عن المؤمنين، وذكرهم ثانياً لبيان إنزال العذاب، لأن الحديث عن المنافقين والكافرين.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿ شَٰهِدًا ﴾ على أمتك، لقوله تعالى ﴿ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾ ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ على الطاعة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ على المعصية.

﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وأمته ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تقوُّوه بتقوية دينه ورسوله، والتعزيرُ نصرٌ مع تعظيم ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تعظّموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي وتنزهوا ربكم[1] ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي غدوة وعشياً بمعنى دائماً في الصباح والمساء.

---

(١) على هذا القول تكون الضمائر كلها راجعة إلى الله عزَّ وجل، وهذا اختيار البيضاوي وأبي السعود، واختار جمع من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وتعزِّروه وتوقروه﴾ عائد على النبي ﷺ، أي تنصروا الرسول وتقوّوه، وتحترموه وتجلُّوه، والضمير في قوله: ﴿وتسبحوه﴾ عائد على الله عز وجل، وهذا قول الضحاك، واختاره القرطبي وكثير من المفسرين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ أي على قتال قريش تحت الشجرة ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي أن مبايعتك هي مبايعة الله، لأن المقصود توثيق العهد، بمراعاة أوامره ونواهيه، وأصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه، من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد، والمراد بهذه البيعة «بيعة الرضوان» بالحديبية، وفي هذا تشريف للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله عزَّ وجلَّ ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي نصرته إياهم فوق نصرهم إياه، ويد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين كأنها يد الله[1]، كما قال سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فما نكث أحدٌ منا ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ أي فمن نقض عهده، فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ أي ومن وفَّى بعهده ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ هو الجنة.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أي

---

(١) قال ابن كثير: أي هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالىٰ المبايع بواسطة رسوله ﷺ (أنظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٢).

المتخلفون عن الخروج معك، وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، حين استنفر من حول المدينة من الأعراب، ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة، عام الحديبية معتمراً، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب، أو يصدُّوه عن البيت، وأحرم ﷺ وساق معه الهدي، ليعلم أهل مكة أنه لا يريد الحرب، فقال المتخلفون: يذهب إلى قوم غزوه في عُقر داره، وقتلوا أصحابه، وظنوا أنه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ بما قالوا: وبما تعلَّلوا به، ومنه قولهم ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ ولم يكن من يخلفنا فيهم ويحميهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى، ليغفر لنا تخلفنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيار، بل عن اضطرار، فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي إن الذي خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو النفاقُ، والشكُّ في الدين، فطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقته ﴿قُلْ﴾ رداً لهم عند اعتذارهم إليك ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي فمن يقدر على شيء من النفع ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أي ما يضركم من هلاك الأهل والمال، حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظهما، ودفع الضرر عنهما ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي ومن يقدر على شيء من الضرر، إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهليكم؟ فأي حاجة إلى التخلف، لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحق، ورد لهم بموجب ظاهر مقالتهم الكاذبة ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي ليس الأمر كما تقولون، بل كان الله عالماً بما تعملون، مطّلعاً على أخباركم.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ الخ بدل مفسر لما فيه الإبهام، أي بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلَّفتم، لا

كما ذكرتم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم، غير مبالين بهم، لأن الشبهة قد يزينها الشيطان للإنسان كما فعل بكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ المراد به إما الظن الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء، أو ما يعمُّه وغيره من الظنون الفاسدة ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ومن لم يعتقد بالله وبرسوله بطريق الصدق والإخلاص ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي هيَّأنا لهم ناراً حامية مسعَّرة، تحرق القلوب والجلود، وإنما وصفهم بالكفر، إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره، بيَّن الله تعالى بأن ظنهم الفاسد يفضي إلى الكفر، وحرَّضهم على الإيمان والتوبة من ذلك الظن السيِّىء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ من غير دخل لأحد في شيء منهما، وجوداً وعدماً، وفيه حسمٌ لأطماعهم في استغفاره ﷺ لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يشاء.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۖ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي المذكورون ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي مغانم خيبر، لتحوزوها، حسبما وعدكم إياها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها، حيث كان لهم طمع في الغنيمة، أوضح الله تعالى كذبهم بهذه الآية، حيث لا يشتغلون بأموالهم وأهليهم في هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم، التي خصها أهل الحديبية، فإنه ﷺ لمَّا رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست ثم غزا خيبر في أوائل المحرم ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة خصَّها بهم، حسبما أمر الله تعالى، فالمراد وعده تعالى بغنائم خيبر لأهل الحديبية ﴿قُل﴾ إقناطاً لهم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي عند الانصراف من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي ليس ذلك النهي حكم الله، بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً، وهو حرصهم على حطام الدنيا، وهذا رد لقولهم، ووصفٌ لهم بالجهل في أمور الدين.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان، مبالغةً في ذمهم، وإشعاراً بشناعة التخلف ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أبداً، أو الإسلام لا غير ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم، بتكرير التخلف والكذب

في الأقوال. ولمَّا نزلت هذه الآية، قال أهل الأعذار كيف حالنا يا رسول الله؟ فأنزل الله.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ أي في التخلف عن الغزو، لما بهم من العذر، فإن التكليف يدور على الاستطاعة ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ وفي نفي الحرج عن الطوائف المعدودة، مزيد اعتناء بأمرهم، لا في سائر الأعضاء، فلا مانع في الكر والفر ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهي ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ عن الطاعة ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي موجعاً مؤلماً.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ هم الذين بايعوا رسول الله على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا، وبهذه الآية سميت «بيعة الرضوان» روي أنه ﷺ لما نزل الحديبية بعث عثمان بن عفان إلى أهل مكة فأخبرهم أنه ﷺ لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائراً للبيت الشريف، فوقّروه وقالوا لو شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ، واحتبس عندهم، فأرجف بأنهم قتلوه فقال ﷺ: «لا نبرحُ حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة، على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا، وكانوا ألفاً وخمس مائة وخمسة وعشرين، عن جابر رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: «لا يدخل النار

أحد ممن بايع تحت الشجرة»[1] ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الإخلاص لله ولرسوله ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فأنزل الطمأنينة والأمن، وسكون النفس بالربط على قلوبهم، وقيل بالصلح ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ﴾ أي وأكرمهم بغنائم كثيرة من خيبر ينالونها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي منيعاً لا يُغالب، مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه، وفيه إشارة إلى كثرة الفتوحات التي ستكون.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهو ما يفيئه الله على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدَّرة لكل واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ أي غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد، وغطفان، حيث جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمارة يعرفون بها صدق رسول الله ﷺ، في وعده إياهم، ما ذكر من المغانم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقيناً، وثقةً بفضل الله، وللتوكل عليه.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ أي ومغانم أخرى ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة ﴿ قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ ﴾ أي استولى عليها بقدرته تعالى ووهبها لكم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ لأن قدرته ذاتية، لا تختص بشيء دون شيء.

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي أهل مكة، ولم يقع الصلح بينكم وبينهم ﴿ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ منهزمين ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يحرسهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينصرهم.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ أي سنَّ الله تعالى غلبة أنبيائه سنة قديمة، فيمن مضى من الأمم، وهو قوله تعالى: ﴿لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ تغييراً، لأنَّ سنته تعالى لا تتبدل ولا تتغير.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي أيدي كفار مكة ﴿ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ أي في داخلها ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من مقاتلتهم، والكفِّ عنهم، لتعظيم البيت الحرام ﴿ بَصِيرًا ﴾ فيجازيكم بذلك ويجازيهم.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾ حال من الهدي أي محبوساً ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ أي من أن يبلغ مكانه، الذي يحل فيه نحره، وبه استدل أبو حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم، روي أن خيامه ﷺ كانت في الحديبية، ومصلاّه في الحرم، وهناك نحرت هداياه ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم ﴾ أي من جهتهم ﴿ مَّعَرَّةٌۢ ﴾ أي مشقة ومكروه، ويلحقكم ذنب بقتلهم، والمعرَّةُ: الإثم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي غير عالمين بهم، وجواب «لولا» محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا أناساً من المؤمنين المؤمنات بين الكافرين، لما كَفَّ أيديكم عنهم ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التي من جملتها الأمن، وأما الرحمة الأخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها، لكنهم قاصرون في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم في الرحمة الأخروية ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ لو تميز المسلمون من الكافرين ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم.

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي كفرة قريش، فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم ﴿ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ الأنفة والتكبر، أي جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ﴿ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ بدل من الحمية، أي حمية الملَّة الجاهلية ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الطمأنينة والوقار على قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين.

روي أن رسول الله ﷺ لمَّا نزل الحديبية، بعثت قريش «سهل بن عمير وحويطب، ومكرز» على أن يعرضوا على النبي ﷺ، أن يرجع من عامه ذلك، على أن تخلي له قريشٌ مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتاباً، فقال ﷺ لعلي اكتب: «باسم الله الرحمٰن الرحيم» فقالوا: لا نعرف هذا!! اكتب: «باسمك اللهم» ثم قال له: «اكتب هذا ما صالح رسول الله أهل مكة»، فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، اكتب هذا ما صالح محمد بن عبد الله أهل مكة فقال ﷺ، اكتب ما يريدون»، فهمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك، ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقروا وتحمَّلوا حتى لا يدخلهم ما دخلهم من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي ألهمهم الثبات على كلمة الشهادة: «لا إله إلا الله» والإخلاص والوفاء لها بطاعة الله والرسول ﷺ، وفي الآية لطائف قال الله تعالى في الكافر: «جعل» وفي حق المؤمن «أنزل» إشارة إلى أن الحمية في نفسها مذمومة، وبالإضافة إلى الجاهلية، تزداد قبحاً، وكانت مجعولة في الحال، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة، فأنزلها الله فهي حسنة، وإضافة الله فيها أحسن، فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين، على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا، ويتحلوا بالصبر، فهو من فضل الله تعالى ﴿ وَكَانُوٓاْ ﴾ أي المؤمنون ﴿ أَحَقَّ بِهَا ﴾ من غيرهم ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي المستأهلين لها، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه، أهل الخير والصلاح ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم كل شيء فيسوقه إلى مستحقه.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ أي صدَّقه في رؤياه ولم يكذّبه، روي أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رؤوسهم وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، ولم يعيِّن له وقتاً ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، فلمَّا تأخر ذلك، قال «عبد الله بن أُبَيّ» وأصحابه المنافقون: ما حلقنا ولا قصَّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام؟! فنزلت الآية رداً عليهم أي أراه الرؤيا الصادقة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي صدقاً ملتبساً بالحق، ليست من قبيل الأضغاث والأحلام ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله لتدخلن ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق الدخول بالمشيئة لتعليم العباد الأدب في الحديث ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي محلقاً بعضكم، ومقصراً آخرون ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي بعد ذلك من عدو في رجوعكم، وقوله ﴿آمنين﴾ في حال الإحرام ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة، ما لم تعلموا أنتم من الحكمة، الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي من دون تحقق دخول المسجد الحرام ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، والمراد إنجازه من غير تسويف، ليستدل به على صدق الرؤيا، ولتستريح إليه قلوب المؤمنين.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي أرسله بالهداية التامة، الشاملة الكاملة، هادياً للناس إلى سبيل السعادة والنجاة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين

الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه على الأديان كلها، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية، وفيه فضل تأكيد، لما وعدهم به من الفتح، وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم البلاد، وقد حقق ذلك سبحانه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن محمداً ﷺ رسوله، وعلى أن دين الإسلام حق.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الرسول، المرسل بالهدى ودين الحق، هو محمد رسول الله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي أصحابه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أشداء جمع شديد، ورحماء جمع رحيم، والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم بالشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين بالرحمة، والرأفة، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، لمواظبتهم على الصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي ثواباً ورضاء ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ في جباههم ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ من التأثير الذي يؤثره كثرة السجود، فقد استنارت وجوههم في النهار، من كثرة صلاتهم بالليل، مع الخشوع والتواضع ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي وصفهم العجيب الشأن، الجاري في الغرابة مجرى الأمثال ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الركوع والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ تكرير المثل لتأكيد غرابته ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي كزرعٍ أخرج فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه حتى صار غليظاً، من

المؤازرة بمعنى المعاونة ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار غليظاً بعدما كان دقيقاً ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي فاستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوته، وكثافته، وغلظه، وحسن منظره، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحابه ﷺ، كانوا قلَّةً في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرهم يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس شأنهم ودينهم، وكامل قوتهم، وجاء في الإنجيل «سيخرج قومٌ ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر» ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ علة لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع، من نمائهم واستحكامهم، أي ليدخل الغيظ إلى قلوب الكفار بهم ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من العزة والكرامة، غاظهم ذلك أشد الغيظ، و«مِنْ» للبنيان وقال ابن جريج: من الشطأ الذي أخرجه الزرع، الداخلون في الإسلام، إلى يوم القيامة، روي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم»[1] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»

* * *

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مدنية وهي ثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وصَفَهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذان بأن ما في النداء يستدعي مزيد اعتنائهم، لأن الإيمان داعٍ إلى المحافظة عليه، ووازع عن الإخلال به، وفي هذه السورة إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ ﴾ أي لا تقدِّموا أمراً من الأمور، ولا تشيروا برأي من الآراء ﴿ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي لا تفعلوا شيئاً، ولا تقطعوا بأمر قبل أن يحكم الله ورسوله به، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا مشوا معه لا يمشون أمامه، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل قبله، تعظيماً لمقامه الشريف ﷺ[1] ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون، من الأقوال والأفعال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم.

---

(١) في الآية الكريمة استعارة لطيفة، حيث شبَّه حال المؤمنين مع رسول الله عليه الصلاة =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إعادة النداء للمبالغة في الإيقاظ، بشأنه ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ أي لا تبلغوا بأصواتكم حداً يبلغه ﷺ بصوته، بل ينبغي أن تغضوا منها، بحيث يكون كلامه عالياً على كلامكم، لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، ومن يرفع صوته عند غيره، يجعل لنفسه اعتباراً زائداً وعظمة ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ إذا كلمتموه ﴿ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ أي جهراً كائناً كالجهر الجاري فيما بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ، وتعهدوا في المخاطبة الحديث القريب من الهمس، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظَّم، وحافظوا على مراعاة مقام النبوة، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته، بل بالنبي والرسول، فقولوا يا نبي الله، ويا رسول الله ﴿ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم الصالحة وتضيع، بسبب عدم أدبكم مع الرسول، المبعوث رحمة للعالمين وعلة للنهي، أي لا تجهروا خشية ﴿أن تحبط﴾، وليس المراد بما نهي عنه ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة، فإن ذلك كفر، بل ما يكون أثناء المحاورة، من الرفع والجهر، حسبما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُم لِبَعۡضٍ﴾ ﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ أي بحبوطها، وفيه مزيد تحذير لهم مما نُهوا عنه.

= والسلام، بحال ملكٍ عظيم كان يمشي مع الحاشية والأتباع، فتقدم للسير أمامه بعض أفراد الحاشية، وكان الأدب يقتضي أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهكذا شأن الصحابة مع رسول الله عليه السلام لا ينبغي لهم أن يعرضوا أمراً، أو يقطعوا حكماً في حضرة النبي ﷺ، ولهذا جاء الأمر عاماً يشمل كل شأن من شؤون الحياة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي يخفضونها في مجلسه، مراعاة للأدب، أو خشية من مخالفة النهي ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى المتخلقين بالأدب من الصحابة الكرام، الذين يخفضون أصواتهم في مجلس الرسول عليه السلام ﴿ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي جرَّبها للتقوى، وأخلصها للتقوى وجعلها صفة راسخة فيها، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ﴾ ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يُقادر قدره لغضهم أصواتهم، وسائر طاعاتهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ أي من خارجها ومن خلفها، والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين، ومناداتهم أن جماعة من الأعراب، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو راقد وقت الظهيرة، فنادوه من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم ﷺ ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إذ لو كان لهم عقل، لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ ﴾ أي لو ثبت صبرهم وانتظارهم ﴿ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تفاتحهم بالكلام، وفيه بيان لحسن الأدب ﴿ لَكَانَ ﴾ الصبر المذكور ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ من الاستعجال، لما فيه من حسن الأدب، وتعظيم الرسول، الموجبين للثناء والثواب ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بليغ المغفرة والرحمة، إن تابوا وأصلحوا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ ﴾ المجيء بالنبأ الكاذب، يورث كون الإنسان فاسقاً ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ أي فتعرفوا وتفحّصوا الأمر، روي أنه ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أهلها، فلما سمعوا به خرجوا لاستقباله، فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا، ومنعوا الزكاة، فهمَّ ﷺ بقتالهم، فنزلت ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ ملتبسين بجهالة حالهم ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ أي تصيروا بعد ظهور براءتهم ﴿ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ ﴾ في حقهم ﴿ نَٰدِمِينَ ﴾ مغتمين غماً لازماً، متمنين أنه لم يقع، وتنكير الفاسق، والنبأ للتعميم، كأنه قال: أيَّ فاسق جاءكم، بأيِّ نبأ فتبينوا، أي تطلَّبوا انكشاف الحقيقة وتثبتوا من صحة الخبر.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً، فإن الله تعالى يخبره فتفتضحوا ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لو أطاعكم في أغلب ما تشيرون عليه، لوقعتم في الجهد والمشقة، المؤدي إلى الهلاك، وفيه إيذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق، تصديقاً لقول الوليد، وأنه ﷺ لم يطع رأيهم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ أي ولكنه تعالى جعل الإيمان محبوباً لديكم ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي وحسَّنه في قلوبكم حتى رسخ حبه فيها، وأصبح طبيعة وسجيَّة ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ ﴾ أي وبغَّض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من المعاصي

والآثام مما لا خير فيه، حتى اجتنبتموها ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ الموافقون للرشد الموفقون لفعل الخيرات.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ أي تفضلاً منه تعالى عليكم حبَّب إليكم الإيمان، وكرَّه إليكم العصيان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما يفعل بموجب الحكمة والمصلحة.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ أي تقاتلوا، والجمع باعتبار المعنى ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ أي ترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ إلى حكمه، وإلى ما أمر به ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ إليه واقتلعت عن القتال حذراً من قتالكم ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما، عسى يكون بينهما قتال في وقت آخر، وتقييدُ الإصلاح بالعدل، لأنه مظنة الحيف، لوقوعه بعد المقاتلة، وقد أكد ذلك حيث قال: ﴿وَأَقْسِطُوا ۖ﴾ أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء، وفيها دلالة على أن الباغي المقاتل، لا يخرج بالبغي عن الإيمان، وأنه يجب معاونة من

بُغي عليه، بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة، ولفظةُ «إن» إشارة إلى ندرة الوقوع بين المسلمين، وإلى أنه ينبغي أن لا يقع منهم، ولم يقل «منكم» تبعيداً لهم عنهم، وقال ههنا (بالعدل) ولم يقل هناك فأصلحوا بالعدل، لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال، وذلك يكون بالنصيحة، أو التهديد والزجر، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل من ضمان المتلفات، وهو حكم، فقال: (بالعدل) لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي إنهم منتسبون إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ لأن الأخوة الدينية، موجبة للإصلاح، وتخصيصُ الاثنين بالذكر، لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية، لتضاعف الفتنة والفساد فيه، فالمعنى: ولو كان بين الرجلين من المسلمين أدنى اختلاف، فاسعوا في الإصلاح ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون من الأمور التي من جملتها ما أُمرتم به من الإصلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين أن ترحموا على تقواكم. عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلِمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّجَ عن مسلم كربة فرّجَ الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1].

(١) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٩٣ والترمذي رقم ١٤٨٦ في الحدود.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ ﴾ أي جماعة منكم ﴿ مِّن قَوۡمٍ ﴾ آخرين منكم، والقوم هنا الرجال خاصة، إذ لو كانت النساء داخلة في قوم، لم يقل ﴿ولا نساء﴾ ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ أي عسى أن يكون المسخور منهم عند الله، خيراً من الساخرين، ويمكن أن يقال المراد من قوله: ﴿أن يكونوا﴾ أن يصيروا، فإنَّ من استحقر إنساناً لفقره، أو ضعفه، لا يأمن أن يفتقر هو، ويستغني الفقير، ويضعف هو، ويقوىٰ الضعيف ﴿ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ أي ولا تسخر نساء مؤمنات من نساء مؤمنات[1] ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ ﴾ أي المسخور منهن ﴿ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ أي من الساخرات، فإن مناط الخيرية ليس ما يظهر للناس، من الصور والأشكال، إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، ولا يعلم ما في القلوب إلا علاَّم الغيوب، كما جاء في الحديث الشريف «ربَّ أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه»[2] ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي ولا يَعِبْ بعضكم على بعض، فإن المؤمنين كنفسٍ واحدة، فإذا عاب المؤمن مؤمناً، كأنما عاب نفسه، ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ ﴾ ولا يدع

---

(١) لم يقل تعالى: لا يسخر رجل من امرأة، ولا امرأة من رجل، وإنما قال: ﴿قوم من قوم... ولا نساء من نساء﴾ أي لا يسخر رجال من رجال، ولا نساء من نساء، للإشعار بأن مجالسة الرجل للمرأة مستقبح شرعاً، لما يجرُّ إليه من المفاسد، فالمجتمع الإسلامي نظيف، لا اختلاط فيه بين الذكور والإناث كما هو الحال عند غير المسلمين، ولأن الإنسان إنما يعيب من يلابسه ويخالطه، فالرجال يلتقون بالرجال، وربَّما عاب بعضهم بعضاً، والنساء بالنساء، ولذلك جاء التحذير للرجال والنساء، فافهم أسرار الكتاب العزيز.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٦٢٢.

بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختصٌّ به عرفاً، كمن يعيب غيره بالقصر، أو يهزأ عليه فيقول: يا أقرع أو يا أعرج، فالتلقيب المنهيُّ عنه، هو ما يتداخل المدعو به كراهةٌ، لكونه ذماً له، فأمَّا ما يحبه فلا بأس به، كما قيل لأبي بكر رضي الله عنه: الصدِّيق، ولعمر رضي الله عنه: الفاروق، ولم يقل تعالى «ولا تلامزوا» لأن اللمَّاز إذا لمَزَ، فالملموز قد لا يجد في الحال عيباً يلمزه به، وأمَّا في النبز وهو الرمي فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به، فإن من نبز غيره بالثور، وهو ينبزه بالحمار، وغير ذلك.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ الاسم هنا بمعنى «الذكر» يقال: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم؛ أي بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق، بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به، والمعنى: بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً، بسبب هذه الأفعال، ويكون كقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ وكان بعض الناس يقول في شتمه لمن أسلم من اليهود يا «يهودي» ويا فاسق، فنهوا عنه، وقيل: نزلت في «صفية بنت حُيَيّ» أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقلن لي بنت يهودي، فنزلت الآية[1] ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نُهِيَ عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

(١) أشار إلى ما رواه أحمد في المسند ٣/١٢٦ عن أنس بن مالك قال: بلغ صفية أن حفصة قالت لها: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: قالت لي حفصة: أنتِ ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي ـ يريد موسى عليه السلام ـ وعمك لنبيٌّ ـ يريد هارون عليه السلام ـ وإنك لتحت نبيٍّ، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتق الله يا حفصة.. الحديث.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة وإساءة الظن بالمؤمنين، وكونوا على جانب منه، وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط، والتأمل في كل ظن، فلا يسارع المؤمن بل يتأمل ويتحقَّق، قبل أن يظن السوء بأخيه المؤمن ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب، أي إن في بعض الظن إثم يلحق صاحبه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، كما أمركم، المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا، (ويشير إلى صدره) بحسب امرىء من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم، على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله»[1] ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، والتجسسُ: التفتيشُ عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، ومنه الجاسوس ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته، واغتابه اغتياباً إذا ذكره بما يكره، والاسم الغيبة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قلنا: اللهُ ورسوله أعلم؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره، قلتُ: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»[2] ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾؟ تمثيلٌ وتصوير على أفحش وجه، وأشنعه، طبعاً، وشرعاً، مع مبالغات من فنون شتى، الاستفهام التقريري، وإسناد الفعل إلى أحد الأخوين (لحم أخيه) وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان[3]، وجعل المأكول أخاً للآكل، وكونه ميتاً، وتعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك، أي

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ والبخاري رقم ٦٠٦٥ وروى الترمذي بعضه رقم ١٩٢٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٩ باب تحريم الغيبة، «بهتَّه»: أي قلت فيه البهتان وهو الباطل.

(٣) طرف من حديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨.

فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره، من الغيبة باستقامة الدين، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان، كلحمه ودمه، لأن قلبه يتألم إذا ذكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قُطع لحمه، والعرض أشرف من اللحم[1]، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نُحاس يخمشون وجوههم ولحومهم، فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[2] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك ما أُمرتم باجتنابه، والندم على ما صدر عنكم من قبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث يجعل التائب كمن لم يذنب، وإن كثرت ذنوبه، والكذب والافتراء هما في غاية القبح، فلم ينه عنهما اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لأن وصفهم بالإيمان، يمنعهم عنهما، وهما دأب الكافر، وإنما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي من آدم وحواء، وخلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب، قيل: لمَّا كان يوم الفتح، أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة وأذَّن، فقال بعض الناس: أَمَا وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ فنزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وزجرهم

---

(١) جاء التعبير القرآني بأبدع التمثيل البياني، فقد مثّل تعالى للمغتاب بالشخص الذي جلس على ميتةٍ ينهش من لحمها، وهذا اللحم أولاً لحم إنسان، وهذا الإنسان أخوه، ثم هو ميِّت، فإن أكل لحم الميتة هو المتناهي في كراهة النفوس، ونفور الطباع، ويا له من تمثيل مُريع، بلغ الذروة في القبح والشناعة، والفظاعة.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨ في الأدب.

عن التفاخر بالأنساب ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الشعب: الجمعُ العظيم، المنتسبون إلى أصل واحد، سميت شعوباً لأن القبائل تتشعب منها كتشعب أغصان الشجرة، والشعبُ يجمع القبائل، والقبيلة هي الجماعة التي يربطها حسب أو نسب، وهي تجمع البطون والأفخاذ، ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، ويعرف الإنسان نسبه فلا ينتسب أحد إلى غير آبائه، لا للتفاخر بالآباء، والتفاضل في الأنساب، والسخرية تفضي إلى التناكر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب، كأنه قيل: إن الأكرم عند الله هو الأتقى، فإن تفاخرتم فتفاخروا بالتقوى، فإنها تكمل النفوس، وبها تتفاضل الأشخاص، وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي يعلم التقيَّ والشقيَّ، والصالح والطالح، فلا تزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ أي بعض الأعراب، نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سَنَة جدب، فأظهروا الإسلام، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بأثقال وعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون الصَّدقة، ويمنُّون عليه ﷺ ما فعلوا ﴿ءَامَنَّا ۖ قُل﴾ لهم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ إذ الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لما مننتم بإيمانكم وأفعالكم!! وهذا كان معجزة للنبي ﷺ حيث أطلع الله رسوله على الغيب، وذلك كالتاريخ، لنزول الآية، لا للاختصاص بهم، لأن من أظهر فعل المتقين، وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام، لا يحصل له ذلك، لأن التقوى من عمل القلب، والله تعالى خبير بما في الصدور ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ للاحتراز من النهي عن التلفظ بالإيمان، أي فإن كنتم

تقولون شيئاً، فقولوا أمراً عاماً، لا يلزم منه كذبكم، وهو أسلمنا، فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم، ولم تذوقوا حلاوته بعد[1]، ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص، وترك النفاق، وفيه تحريض على الإيمان الصادق ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾ أي لا ينقصكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من أجورها، يقال: لات يليت، ليتاً: إذا نَقَصَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم، بل ثبتوا على اليقين، فهي كقوله تعالى: ﴿ثم استقاموا﴾ ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي في طاعة الله على تكثير فنونها من العبادات البدنية والمالية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا غيرهم.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟ أي أتخبرونه بتصديق قلوبكم؟ والتعبير عنه بالتعليم لتشنيعهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ حال من مفعول «تُعلِّمون» مؤكدة لتشنيعهم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه السورة ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم. فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبهم الله في ذلك، ولو كانوا منافقين لعُنّفوا وفُضحوا ـ ا هـ.

العلم بجميع الأشياء، التي من جملتها ما أخفوه من غرض إظهارهم الإيمان، وفيه مزيد تجهيل، وتوبيخ لهم.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ ﴾ أي يعدون إسلامهم منةً عليك ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ ﴾ أي لا تعدُّوا إسلامكم منة عليَّ، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ أي لو صح ادعاؤكم بالإيمان، فلله المنة عليكم، حيث بيَّن لكم الطريق ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف، يدل عليه ما قبله، أي فلله المنة عليكم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي ما غاب فيهما، فكيف يخفى عليه حالكم؟ ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في سركم وعلانيتكم والله أعلم بمراده، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»

* * *

مكية وهي خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾.

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ المجيد أي ذي المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد جلَّ وعلا، فهو ممجَّد.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي لأن جاءهم منذر منهم، أي من جنسهم، وهو إضراب عما ينبىء عنه جواب القسم المحذوف، كأنه قيل: والقرآن المجيد أنزلناه إليك، لتنذر به الناس ولم يؤمنوا به، وهو رجل منهم، عرفوا أمانته، وعدالته، وأصالته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن يناله مكروه، وإذا علم أن مخوفاً أظلَّهم، لزمه أن ينذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف؟ ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجبهم، أي هذا شيء في منتهى الغرابة والعجب.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أحين نموت ونصير تراباً، نرجع إلى الحياة مرة ثانية، ونبعث بعد موتنا؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك رجوع مستحيل، بعيدٌ غاية البعد.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ رد لاستبعادهم، فإن علمه تعالى عام ولطيف، حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، ويعلم أجزاء كل واحد منهم، وقادر على الجمع والتأليف، فليس الرجع منه ببعيد ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، وهو اللوح المحفوظ، الذي أحصى تفصيل كل شيء، مكتوبٌ موتهم، ومكثهم في القبر، ومبعثهم يوم القيامة، والحفيظ بمعنى «الحافظ» قد ورد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي بحافظ.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ إضراب وانتقال، من بيان شناعتهم السابقة، إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوة، الثابتة بالمعجزات الباهرة، وسخريتهم وتكذيبهم للقرآن الكريم ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حين جاءهم في أول وهلة، من غير تأمل وتفكر ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مضطرب، لا قرار له، حيث يقولون تارة: شاعر، وطوراً ساحر، ومرة كاهن، لا يثبتون على شيء واحد، وكان الواجب عليهم أن ينتقلوا من الشك إلى اليقين والقطع بصدقه، لعلمهم بأمانته، واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم، ولظهور المعجزات على يديه، فلما غيَّروا حصل الاضطراب.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ ﴾؟ أي أغفلوا ولم ينظروا حين كفروا بالبعث؟ ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ أي رفعناها بغير عمد ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ بما فيها من الكواكب المنيرة، المترتبة على نظام بديع ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ أي فتوق، لسلامتها من كل عيب وخلل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِي المَوْتَىٰ﴾[1]؟.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسنٌ يسرُّ به من رآه.

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾ أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنعه، والفرق بين التبصرة والتذكرة، هو أن فيها آيات مستمرة، منصوبة في مقابلة البصائر، كخلق السماء وزينتها، وآيات متجددة عند الناس، كإنبات كل زوج من أنواع الزروع.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ أي كثير المنافع، فيه حياة كل شيء، وهو المطر ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ كثيرة، أي أشجاراً ذوات ثمار ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ أي حب الزرع، الذي شأنه أن يُحصَد، البُرِّ، والشعير، وأمثالهما.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٣.

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلنَّخْلَ ﴾ عطف على الجنات، وتخصيصها بالذكر لبيان فضلها على سائر الأشجار ﴿ بَاسِقَٰتٍ ﴾ أي طوالاً مستويات، مرتفعات، يقال: بَسَقَت النخلةُ بسوقاً طالت، فهي باسقة ﴿ لَّهَا طَلْعٌ ﴾ هو ما يطلع من ثمر النخيل ﴿ نَّضِيدٌ ﴾ متراكب بعضه على بعض، والمراد تراكم الطلع، أو كثرة ما فيه من الثمر، وفيه استدلالٌ بالأشجار، تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت، ينمو ويزيد.

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي لرزقهم، علة لقوله تعالى: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا ﴾ وفي تعليله بذلك، تنبيه على أن الواجب على العبد، أن يكون انتفاعه بذلك، من حيث التذكر والاستبصار، أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرزق، ولهذا قال أولاً: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ وقال ثانيا: ﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ مطلقاً، لأن الرزق حاصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً، وغيره يأكل كالأنعام ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي أرضاً مجدبة، لا نماء فيها فجعلها بحيث تربو، وتنبت أنواع النباتات، وصارت تهتز بها، بعدما كانت جامدة هامدة ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ أي مثل تلك الحياة البديعة، حياتكم بالبعث من القبور، وفي التعبير عن إخراج النبات بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج، تهوينٌ لأمر البعث، وتقريب إلى أفهام البشر.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل المشركين ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ شيخ الأنبياء، بدأ به لأنه أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم بلاء ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾.

﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ﴾ أي فرعون وقومه، ليلائم ما قبله وما بعده ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ سمَّاهم إخوانه لأنه عليه السلام صاهرهم وتزوج منهم.

﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو ملك باليمن أسلم دعا قومه إلى الإسلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ فيما أرسل به من الشرائع، أي كل قوم من الأقوام المذكورين، كذبوا رسولهم، وكذبوا جميعهم جميع الرسل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحل عليهم وعيدي، وهي كلمة العذاب.

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه، حتى يُتوهم عجزنا عن الإعادة؟ وهذا جواب لقولهم: ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي إذا لم نعجز عن الخلق الأول، فكيف نعجز عن الثاني؟ ﴿ بَلْ هُمْ ﴾ أي قريش ﴿ فِي لَبْسٍ ﴾ وشك وشبهة ﴿ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، بل هم في شبهة في خلق مستأنف، لما فيه من مخالفة العادة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أي ما تحدِّثه به نفسه، وهو ما يخطر بالبال من حديث النفس ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي أعلم بحاله ممن كان

أقرب إليه، ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ والوريدُ: العرق الذي هو مجرى الدم، يجري فيه الدم ويصل إلى القلب، سمي وريداً لأنَّ الروح ترده، وهو المسمَّى بالشريان الوريدي، والآية تمثيل لشدة قرب الله من عبده، وليس هناك اتحاد وحلول، تعالى الله عن ذلك.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي إنه لطيف، يتوصل علمه إلى ما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب، وذلك حين يتلقى المَلَكان الحفيظان [1] ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكَيْن، فإنه أعلم منهما، ومطّلع على ما يخفى عنهما، لكنَّ الحكمة اقتضت ذلك، لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ في الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، فهو كالظل للإنسان، يلازمه حيث كان.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به من خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي مَلَكٌ يرقُب ما صدر عنه، لما أن كلاً منهما رقيب لما فوض إليه ﴿عَتِيدٌ﴾ أي معدٌّ ومهيَّأٌ لكتابة ما أُمر به، يكتبان ما فيه أجر، أو وزرٌ، ويحتمل أن يقال المتلقيان المَلَكان، اللذان يأخذان روحه من ملك الموت، أحدهما

(١) قال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحواله ـ ملكَيْن بالليل، وملَكَيْن بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره، إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ ـ اهـ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣.

يأخذ أرواح الصالحين، وينقلها إلى دار السرور إلى يوم النشور، والآخر يأخذ أرواح الطالحين، وينقلها إلى الويل والثبور، وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالشهيد هو القعيد، والسائق هو المتلقي.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي بحقيقة الأمر، أي بما يؤول إليه أمره، من السعادة والشقاوة، وسكرة الموت: شدته الذاهبة للعقل ﴿ذَلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتنفر عنه.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿ذَلِكَ﴾ أي وقت ذلك النفخ ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي يوم إنجاز الوعيد، وتخصيص الوعيد بالذكر لتهويله.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد بعملها، وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد جوارحه، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم..﴾ الآية.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي يقال له: لقد كنت أيها الإنسان في غفلةٍ من هذا اليوم العصيب ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ الغطاء: الحجاب

المغطّي وهو الغفلة، والانهماك في الشهوات، وقصر النظر عليها ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي فبصرك اليوم قوي نافذ، لزوال المانع.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهور على أنه المَلَك الكاتب الموكل به ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ﴾ قال الملك الموكل به، مشيراً إلى كتاب عمله: هذا مكتوب عندى ﴿عَتِيدٌ﴾ أي مهيأ للعرض.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو للملكين من خزنة النار، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي كل كافر معاند للحق.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة، أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله، والمراد بالخير: الإسلام الذي هو خير محض، كأنه قال: كفر بالله ولم يقنع بكفره حتى منع الخير عن الغير. قيل: إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم، غشوم ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٍّ في الله، وفي دينه ويوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من كل كفار ﴿جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ تكرير للتوكيد.

﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ أي الشيطان المقيّض له، فكأنَّ الكافر قال: رب هو أطغاني، فقال قرينه ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أي ما كان ابتداء الإضلال مني، لكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي ضلال بعيد عن الحق، فأعنتُه عليه بالإغواء، من غير قسر وإلجاء.

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ ﴾ أي في موقف المحاسبة، إذ لا فائدة في ذلك ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ أي سبق أن أنذرتكم على الطغيان، فلا تطمعوا في الخلاص اليوم.

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ أي ما يبدَّل حكمي، ولا يغيَّر كلامي، بعقاب أهل الكفر والإجرام ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل، لتهويل أمرها، والمعنى: إنها مع اتساعها، وتباعد أقطارها، يُطرح فيها من الإنس والجن حتى تمتلىء ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم، وهذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل، ويمكن أن يكون الأمر على الحقيقة، بأن يخلق الله للنار قدرة على الكلام، ويسألها فتجيب، والله على كل شيء قدير.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، أي قُرِّبت للمتقين، بحيث يشاهدونها من الموقف، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها، ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي مكاناً غير بعيد.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى الجنة أي مقولاً لهم ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي حافظ لما استودعه الله من حقوقه.

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ وصف القلب بالإنابة، لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى خالصاً، أي جاء بقلب طيّب سليم، خالص من شوائب الضلال والإشراك.

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ أي بسلامة من العذاب والهموم والأكدار ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أي ذلك هو البقاء الدائم في الجنة، الذي لا انتهاء له، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء.

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم كائناً ما كان ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم، مما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي قبل كفار قريش ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي قوة كعاد وأضرابها ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي تفرقوا في البلاد، وجالوا في أكنافها ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي هل من مهرب من الموت؟ أي لم يجدوا محيصاً، بل ماتوا وصاروا إلى أمر الله.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر في السورة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي قلب سليم يدرك كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها، فيعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي إلى ما يتلى عليه ليقف على جلية الأمر ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي حاضر الفكر والقلب، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا﴾ أي خلقناهما مع عظمتهما في مقدار ستة أيام وما أصابنا ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ أي من إعياء ولا تعب، وهذا رد على جهلة اليهود في زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على ظهره على العرش، فهو يوم استراحة الرب، فكذبهم الله تعالى.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي ما يقوله المشركون في شأن البعث، من الإنكار والاستبعاد، فإن من فعل هذه الأفاعيل قادر على بعثهم، والانتقام منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزّهه تعالى عن العجز، حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من النبوة والهداية ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ العصر، والظهر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ العشاءان والتهجد، وقيل: أراد بالتسبيح الصلاة ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ النوافل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سبَّح الله في دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثاً وثلاثين، ثم قال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه، وإن كانت مثل زَبَد البحر»[1].

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أي لما يوحى إليك، من أحوال القيامة، وفيه تهويلٌ لأمر المخبَرِ به ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ أي إسرافيل عليه السلام، فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٥٩٧.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ ﴾ وهي النفخة الثانية ﴿ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أي يوم يسمعون الصيحة، ملتبسة بالحق الذي هو البعث، يخرجون من القبور.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾ أي يُحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا، من غير أن يشاركنا في ذلك أحد ﴿ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ للجزاء في الآخرة.

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي تتصدع الأرض فتخرجُ الموتى من قبورهم ﴿ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ مسرعين جمع سريع، كالكرام جمع كريم ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ ﴾ أي بعث وجمع ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي هيِّن.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من نفي البعث، وتكذيب الآيات، وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمتسلط تقسرهم على الإيمان، وإنما أنت مذكِّر ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي فعظْ بهذا القرآن وخوِّف من يخاف وعيدي، وأمَّا من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبه أعمالهم من فنون العذاب. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»

* * *